القفص المهجور

بحث انتقادي

بقلم فؤاد افرام البستاني استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

قامت في مصر ، لبضعة اشهر خلت ، ضجة حول الشعر والنثر . فانقسم الادباء الى فريقين كل يدلي بحججه المديدة ويُفنّد آراء خصمه . وكانت النتيجة ان اسفر الضجيج عن حقيقة قرّرت لدى اكثر المتناظرين ، وهي ان النثر العربي في مصر جرى شوطاً واسعاً ، وان الشعر لا يزال في دائرته الضيّقة ، جامداً ، جاثماً .

هكذا كان حكم ادباء القطر الشقيق على الشعر . والشعر عندهم لا يزال « إمارةً » مقيّدة بأسلوب « امير » لا يتنزّل عن تقاليده الموروثة من زمان قديم ومكان بعيد ، الى الحياة في زمانه ومكانه . وجمهرة الشعراء عندهم — اذا استثنينا شاعر القطرين ، وهو بحكم الطبع خرج عن دولة « الامير » ، وبعض من شقّوا عصا الطاعة فاخرجوا انفسهم من تلك الدولة — لا يزالون سائرين بقوّة الاستمرار وراء من جهل حقيقة الشعر فخصّه بالمخيلة والشعور فحسب ، وافرده عن تأثير العقل ، ففصل بينه وبين العلم ؛ وجعله في تلك الجزيرة القاحلة تتدافع من عن جانبيه موجات الثقافة البشرية والاختبار العالمي ، فيلقاها هازئاً بها ، وتمدّه غير مكترثة لهزئه ؛ فيبقى جامداً عقيماً غير قابل للنموّ ولا للتطوّر .

هذه على الجملة حالة الشعر العربي الحاضر في اكثر بلاد الناطقين بالضاد . وسيبقى كذلك حتى يشعر انه صدى لآمال الشعوب ، ومرآة لحياة المجتمع ، فيتنزّل اذ ذاك عن عرشه التالد ، ويطرح اكاليله العريقة في القدم ؛ ويحتك بعلوم تلك الشعوب ، ويستفيد من ثقافة ذاك المجتمع . فاذا رأيت شاعراً يتجاسر ان يلجأ الى غير مخيلته وشعوره المكتسبين ، فيشاهد صوراً جديدة

ويحس عواطف شخصية تباين التي ألفها العرب منذ الجاهلية ؛ اذا رأيت شاعراً لا يأنف من مطالعة الكتب، ولا يرى بأساً في فتح غير الدواوين العربية القديمة : اذا رأيت شاعراً لا يتراجع امام اجهاد الفكر والدرس والبحث ليس فقط في مظاهر الشعر العديدة ، بل في العلوم والمدنيات على اختلاف انواعها ، فيشغل عقله ومخيلته وشعوره جميعاً في تحصيل الافكار والصور والعواطف ، ويجعل كلامه صدى لآمال شعبه وصورة لحياة مجتمعهم ؛ اذا رأيت كل هذا ، فاستبشر خيراً بترقي الشعر العربي ، وقل ان امامك شاعراً مستقلاً ، شاعراً شخصياً ، شاعراً حياً ، بل قل انه « شاعر » وكفى .

حداني الى كتابة ما تقدّم ما رأيته من الحياة ، والاستقلال ، والشخصية في مجموعة جديدة من الشعر[١] . وكان بقلبي شيء من جمود الشعر العربي في بلاد الشرق ، وبنفسي شيء كثير من حرق البخور امام « مومياءات » الشعر المحنّط .

عرف يوسف غصوب معنى الشاعر الحيّ ، المستقلّ ، الشخصي ، فعمل على اقامة مثال له في اول مجموعته ، واجتهد ، في باقيها ، ان يسير تدفقاً الى تحقيق هذا المثال .

عرف الشاعر الحقيقيّ ، لانه فهم حقيقة الشعر وحقيقة الحياة ، وشعر ان لا حياة للشعر اذا انفردت به قوة واحدة من قوى النفس . فالشعر عنده « خلاصة آمال الشعوب » ولكنه لا يبني « المجد المتأبّد » الا اذا كانت « قوافيه من القلب والنهى » . هو « خمرة » لاذّة ، مفرحة ، ولكنه ايضاً « أنة » موجعة . هو « عزّة النفس وإباؤها » الشامخ ، ولكنه ايضاً رقّة القلب وبكاؤه لدى بكاء التعساء . وبكلمة اخرى هو الحياة بنعيمها وبؤسها ، بغناها وفقرها ، بافراحها وآلامها ، برجائها ويأسها ، بكبريائها وتواضعها ، بجترلها ووحشتها ، « بلذاتها » العديدة التي « قراراتها الأسى » .

هذه القرابة بين الشعر والحياة بل هذه المعادلة بينها وفّق الشاعر الى تحقيقها في القصيدة الاولى التي دعاها « الشعراء » ، ولعلّها اصدق مثال لذلك الاتحاد بين

١) النفس المهجور : ليوسف غصوب ، مطبعة جدعون ، بيروت ، ١٩٢٨

القلب والنهى ، وارصن ما رأينا من القصائد ، في هذه الايام ، عقلاً وخيالاً ، يقرنان الى شعور كافر ، في سبك لا بأس به ، وايجاز أبلغ (١

جمع فيها ذاك النزاع الدائم بين العواطف الحية ، وجعلها مقدمة لما سيتلوها من القصائد المختلفة ، فاجاد . لانها تدلّ اوفر دلالة على روح الشاعر عامة ، وروح غصوب خاصة ، الحائرة في ملاوي القلب يدفعها الرجاء فيتاقفها القنوط ، وتحدو بها الرغبة فيرجعها النفور. فهو ان يبكي وحشة قلبه وتحقق ، بحزن ومرارة ، أن « الإلف شريدٌ » وأن

قفص الإلف كئيبٌ مهمَلٌ !

لا يمالك ان يحارب اليأس بالرجاء فيصيح :

آه ! يا صدّاح هل من عودةٍ فيؤاتينا الزمان الأولُ !

حتى اذا رأى انه مخيِّب الآمال ، فاقد العزاء ، كأنه

آيةُ اليأس في جبين النهار !

قاطعاً الرجاء حتى من سلوان التذكارات ، وما الذكرى اذ ذاك الا « صور قاتمة » تظهر الحبّ صريعاً في نعشه وعلى

جنبات النعش دمعٌ وزفيرُ !

لم يبقَ له الّا الالتجاء الى « جنة الاحلام » فيرى فيها من اسباب الملاذ والافراح ما لم يعهده في الدنيا الغرارة . ولعلّ عبث الحلم يدفعه الى بعض المبالغة والتطرّف في تلك التصاوير . بيد انهُ لا يستفيد من ذلك اذ يكون غرور الامل ومرارة اليأس قد برّحا به ، فلا يفكر في السعي الى تلك اللذّات ، بل يقف دونها ، تعباً دنفاً يرى « غاية الاماني » ولكنه يراها بعد فوات الحين ، فلا يجد من نفسه نشاطاً للتقدّم اليها ، ولا يتمنى الا السكون والتلاشي فيها بعدُ ، فيقول :

هذه غاية الامانيّ ! هلّا وقدةٌ في ظلالها بسلامِ !

---

١) وسيرى المطالع قسماً من القصيدة في آخر هذا الدرس.

تتلاشى اقاصنا في هدوء   دون ما حسرة ولا آلام
مثلما تفقد الزهور شذاها   حسنات في جنة الاحلام!

ثم لا يلبث ان يستفيق من ذاك الحلم المريح، فيرى امانيه قد تلاشت على كر الايام وهي مدفونة امامه في «توابيت» تختلف قدراً وقيمة، فيساوره الأسى. على انه يطمئن اذ يرى بين اضطرابات الافق نوراً ضئيلاً، فتستقر نفسه، ويسكن اليه خاطره، ويدعوه «مرفأ السلام». فهو في كل حالاته، كأنه يُنشد دائماً.

ويح نفسي وحيدةً تتهادى   في دجاءٍ من الشقاء ويأس!

وان هذا النزاع المؤلم يتابع الشاعر في كل مجموعته، فيؤلف منها وحدةً تامة متماسكة الأجزاء، مشتركة بين المعاني والالفاظ. وهذه الوحدة الجديدة في الشعر العربي، هي اول مظهر لشخصية شحوب، وهي اول ثمرة لذلك الخروج على اساليب الشعر القديم، والاستقلال البيّن في الطريقة.

واذ ذكرنا شخصية شحوب لا نرى بداً من اظهار بعض مختصاتها. فهي تميل الى التصوير بالتشبيه اللطيف حتى يكاد يكون الوصف ادق من نفسها. وهو على كل حال، من اوضح مميزات شعر شحوب يحتل مركزاً مهماً. فيرفع صاحبه مقاماً بين وصاف العصر لا يستهان به. وانت اذا قرأت الصورة شعرت بها تامة التحديد، واضحة التقاطيع، ماثلة امامك قطعة من تمثال، بل افضل من تمثال؛ لان الشاعر ينفخ فيها حياة فتتموج وتتحرك. فاذا سمعت طنين الذباب الوهاجة في الليل المدلهم، رأيت امامك:

كرات نور حيارى   تجول في الظلماء

واذا بصرت باوراق الوردة المتناثرة في الحضيض، شاهدتها
كفراشاتٍ كسالى لا تطير!

واذا رأيت الشاعر مبتسماً فغرك ظاهره البائس، اجابك منبهاً:

لا تقل: باسم! فربّ ابتسام   كسراج يضيء في كوخ بؤس!

ومن مميزات تلك الشخصية الاقتصاد في المعاني الثائرة، والايجاز في الالفاظ، اقتصاداً غاية في الجودة والتفنن لانه ينم عن تعمق بليغ عند الشاعر،

وعن ثقة واسعة في المطالع ، الذي يتمّ ويوسّع ، في فكره ، ما اشار اليه شاعره . واي بيتين في العربية جما على ايجازهما اكثر ما في هذين من المعاني:

برأ الله انفس الناس ازوا جاً تداعى ، فكل نفس اثنين
تنشدان اللقاء ، مـا من قرار لهما ، دونه ، ولا من تـآسٍ !

اما الايجاز في الكلمات فقد يكون شديد الميل الى الاقتضاب . وهو ، على حسنه ، يحتاج الى شيء من التوسّع كي يمكن المطالع فهم المقصود دون تردُّد .

ولا ننسى من صفات الشاعر الجلية ذاك الضبط الدقيق في الشعور وذاك التسيطر الطاق على القلب وفيضانه . فان من يقرأ قصيدة « الانتظار » وما على شاكلتها ، يجتلي العواطف واحدة واحدة متتابعة إبان ذاك الانتظار المدلّ ، ويتصوّر حالات تلك النفس القلقة بدقة ووضوح لم يتعوّدهما من العُشّاق . فيتخيّل الشاعرَ آخذاً بريشة طويلة ، دقيقة ، يرسم بها عواطفه بطريقة وضعيّة قد يكون فيها بعض التطرُّف ولكن الضبط والقياس يسيطران عليها . فيودّ لو كانت تلك الريشة أقصر فتصبح الصور الدقيقة ادنى من اضطراب قلب الشاعر، واقرب من فيضان شعوره . يودّ هذا لأول وهلة ثم يفكر فيقول : ولعلنا احوج اليوم الى هذه الطريقة الوضعية والى هذه الإشارة الى الحاشيات ، بعد ان كدنا نغرق في ذوبان العواطف،وتدفّق شعور بعض ادعياء الشعر . . . ثم يعود فيقول: ولعلّ بين الطريقين وسطاً يكون امثل منهما ! وانا اشاطره هذا القول الأخير .

واذا اضفت الى هذه الخاصيّات غنّة الانسجام الشعريّ ، ونغم موسيقى الالفاظ ، وحسن ايقاع التعابير الشعرية ، التي يتطلّبها صاحب القفص المهجور في كل لفظة يخطّها ، وكثيراً ما يظفر بها ، تمّ لك تحديد شخصية يوسف غصوب .

ونحن نورد مثالين على الموسيقى والانسجام الشعري ، نأخذ الاول من قصيدة الشعراء وهو المطلع ، وفيه توفيق ظاهر لاطراد احرف اللين المتوحدة ، المائلة بالأرنات المتعدّدة ، مما يحدث في السمع اجمل وقع ، وهو قوله :

على غارب الاحلام ، في مائج الضحى ، ذهبنا ، مع الآمال ، نسعى الى المنى

ونأخذ الثاني من « الاوراق المتناثرة » والانسجام يدافع فيه النَّفَس الشعري؛ وهو قول المصدور لأمه التي تخفي عنه زفراتها:

لا تشكي يا امَّ دمك ٬ واسكبي فالنفس قد بلغت الى اللهوات
وتناثري يا خافقات في الهوا فحياتكنّ قصيرة كحياتي !

غير ان هذا النفس اللطيف قد يدقّ كثيرًا ويخفت بعض الاحيان فلا يتابع الشاعرَ حتى انتهاء قصائده ؛ فتأتي بعض الخاتمات دون المطالع ، كما في هذه القصيدة عينها ، وكما في « الترابيت » التي كنت اودّ ان اراها منظومة شعرًا سويًّا .

* * *

زعم البعض ان يوسف غصوب اقتبس من شعراء الفرنساويين كألبر سامَن (Albert Samain) ، والفرد دي موسه (de Musset) ؛ وزعم غيرهم انه اقتبس من الشاعر العربي خليل مطران . من الحقّ ان غصوب تأثّر بكآبة موسه ، ورموز سامَن وتلميحاته ؛ ومن الحقّ أنه تأثّر بايجاز خليل مطران وتصاويره البديعة ، وانتباهه الى مظاهر الوجود الدقيقة التي لا يكاد يؤبه لها . ولكن من الحق ايضاً ان شاعريّته الشخصية استفادت من هذه المُثُل الفائقة وهضمتها ، فحوّلتها الى كيانها المستقلّ . فكانت اقوى من ان تبقى جافّة ترجع صدى تلك النغمات . كما انها اقوى من ان لا تتخلّص في القريب العاجل من بعض الهنات الطفيفة كقافية باهتة هنا ، وتعبير مضطرب هناك ؛ وعاطفة تحتاج الى الطبعة هنالك . كل هذه هباءات لا تغيّر تلك المرآة الصقيلة التي تعكس النفس الشاعرة بكاملها ، وكل هذه توتّرات لا تؤثّر في جوهر تلك الاوتار الحسّاسة التي تردّ لأذنى ما يمرّ بها صدى !

نحن نشكر الشاعر النابغ لأنه اقرأنا شعرًا حيًا مستقلًا شخصيًا ، كما اننا نشكر الخطّاط الشيخ نسيب مكارم ، والمصوّر عزّت بك خورشيد ، والطابع في مطبعة جدعون لانهم أرونا نوعًا من الفنّ رائعًا . ونتمنى للشاعر الحائر ان « يجد شقيقة نفسه » ، والّا يحرمنا من مواهب تلك النفس في هذه الحياة ، حتى اذا تخلّصنا من « ليل سجننا » سرنا بضيائها الساطع ، اذ

تقرّب حتى تستحيل شرارة تضيء مع الانوار في منبع السنى !